بيير بايل:
حرّية الضمير وحرّية الاعتقاد

أنتوني ماكينا
ترجمة: فريد أبي بكر

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020
All rights reserved © 2020

بيير بايل[1]:
حرّية الضمير وحرّية الاعتقاد[2]

المؤلّفة: **أنتوني ماكينا** (Antony McKenna)
ترجمة: **فريد أبي بكر**

1 Antony McKenna, «Pierre Bayle: liberté de conscience et liberté de penser», in *idem*, *Etudes sur Pierre Bayle*, Paris, Honoré Champion, 2015, p.205-222

2 أشكر **ماريا كريستينا بيتاسي Maria-Cristina Pitassi** و**جون بيرنيي Jean Bernier** على ملاحظاتهما حول نسخة أولى من هذا المقال.

تقديم المترجم[1]:

تأتي هذه الترجمة في سياق الاهتمام بفلسفة بيير بايل، التي لم تنَل حظها -عربيا على الأقل- في الفلسفة عموما والفلسفة الحديثة خصوصا. ولا يقف الأمر عند التعريف ببايل وعرض فلسفته -وإن كان ذلك لا يقلّ أهمية- بل يتعدّاه إلى بيان طبيعة تفكيره، باستجلاء جوانب العقلانية فيه، خاصة أنه غالبا ما قُدِّم إلينا باعتباره فيلسوفا ريبيّا لا يعترف بأيّ يقين للعقل.

تحقيقا لهذا المَطلب، اقترحنا هذا المقال لأنطوني ماكينا Antony Mckenna[2]، أحد المتخصصين الفرنسيين والباحثين النشيطين في فلسفة بيير بايل، الذي عمِل في هذا المقال -كما في مقالات أخرى- على مراجعة هذا التأويل الريبي الذي نُسِب إلى بايل، والذي كان يبدو مُتحقِّقا، وذلك بالكشف عن العقلانية الأخلاقية البايلية التي تشكل، في نظره، الأساس الحقيقي لمذهب بايل في التسامح، المتمثّل في اليقين الواضح للعقل الإنساني في إدراكه للمبدأ الأساسي للأخلاق، بشكل لا يترك مكانا للريبية.

نشير إلى أنّ الباحث خصّص العديد من الأعمال لجوانب مختلفة من فكر بايل -لتصوّره لعمل المؤرخ وللتسامح، على سبيل المثال-، لكن ما أثار اهتمامه أكثر، هي الظروف الاجتماعية والسياسية التي كانت خَلف تغييرات بايل المتتالية لموقفه من العلاقة بين العقل والعقيدة. كل ذلك اعتمادا على التسلسل الزمني لأعمال بايل -خاصة في مجال الأخلاق-، الذي يوحي، حسب الباحث، بتماسك مواقف بايل المتعاقبة والمتعارضة.

1 أشكر أنطوني ماكينا Antonu Mckenna (الكاتب الأصلي) على توضيحاته الدقيقة، التي ساعدت على ترجمة هذا المقال.

2 اللقب الحالي: أستاذ فخري للأدب الفرنسي، جامعة جان موني، سانت اتيان (فرنسا).

النص المترجم

لقد غيّرت الأبحاث منذ عشرين عاما، وبشكل جذري، وضع بيير بايل في تاريخ الأفكار الفلسفية والدينية للعصر الكلاسيكي. من المؤكّد أنّنا عرفناه دائما بوصفه مفكرا للتسامح، لكننا كنّا نمنحه مكانا في هامش تاريخ الأنساق الفلسفية الكبرى لديكارت، وهوبز، وغاسندي، ومالبرانش، ولوك واسبينوزا. وكنّا نصوّره دائما مراقبا، فطنا، ومختصا، ساخرا، وتهكّميا...لكن دائما في هامش الأحداث الكبرى للفكر. وكانت ابتسامته التي تصورناها مضلِّلةً وماكرة، ابتسامة شكّاك يراقب عن بعد وباستعلاء، فوضى النقاشات الفلسفية والمعارك الدينية. ولأنه شكّاك -هذه النقطة كانت تبدو مُتحقِّقة- فإن موقفه إزاء الأحداث الكبرى للفكر الفلسفي والديني ما كان بإمكانه أن يكون في نظرنا إلا هامشيا، موقف نوع من السكرتير المتكتّم على أخطاء البشر. ومن هذا الموقف الذي أسندناه له، استخلصنا تصورا للتسامح مؤسَّسا أيضا على الريبية: فبما أنّ الأفراد لا يمكنهم التوافق حول أيّة حقيقة كانت، فما العمل إن لم يكن أن نتسامح مع أخطائهم؟ لقد كانت الريبية والتسامح يبدوان مُشَكّلين لوَجهَي موقف فلسفي واحد.

لقد ركّزت الأبحاث الجديدة على العقلانية الأخلاقية لبايل، التي يُعبّر عنها في دروسه الفلسفية في سودان Sedan[3]، والتي يجدها في أعمال مالبرانش[4]. هذه العقلانية الأخلاقية تُعبّر عن نفسها في أعماله الأولى، وتوجَد ملخَّصة في الصيغة التالية ضمن **الشرح الفلسفي**: «ينبغي، بدون استثناء، إخضاع كل القوانين الأخلاقية إلى هذه الفكرة الطبيعية للإنصاف، التي تُنير، كما ينير النور الطبيعي، كل إنسان آت إلى هذا العالم»[5]؛ فالإنسان غير قادر، بحكم طبيعته نفسها، على رفض شهادة العقل: «إنّ المحكمة العليا، التي تحكم نهائيّا ودون استعانة بكلّ ما عُرضَ علينا، هي العقل ناطقا ببديهيات النور الطبيعي أو الميتافيزيقا» (نفس المصدر، ص. 87).

لقد سبق أن تعرّفنا على هذه العقلانية الأخلاقية[6]، إلا أنّ عددا من مقدّمات بايل ينبغي طرحها هنا من جديد، بُغية تتبّع جيّد لتفكيره وإمساك جيد بموضوع التسامح وحدوده. لقد سبق أن رأينا أنّ بايل، في تعريفه للعقلانية الأخلاقية، لا يترك مكانا للريبية. لاحظنا أيضا أن هذه العقلانية الأخلاقية -وليس الريبية البيرونية[7]-

3 استقر بايل في مدينة سودان Sedan سنة 1675، حيث عُهد إليه بكرسي الفلسفة في الأكاديمية البروتستانتية، بمساعدة من اللاهوتي **بيير جوريو Jurieu Pierre** الذي يكبره بعشر سنوات، درّس فيها لمدة ست سنوات، قبل أن يتمّ إغلاقها سنة 1881 هي ومثيلاتها من المؤسسات البروتستانتية، كإجراء تضييقي سبق إلغاء مرسوم نانت من طرف السلطات الفرنسية، حيث سيلجأ بعدها إلى "روتردام" بهولندا (هامش المترجم).

4المقصود هنا، على وجه التحديد، كتاب **بحث في الأخلاق** (1684) لمالبرانش (هامش المترجم).

5 Bayle, *Commentaire philosophique*, I, i, éd. J.-M. Gros, Paris, Paris, Honoré Champion, 2006, p.89.

6 انظر المقال السابق: «بايل ضد الرّنغة الحمراء».

الرنغة الحمراء le hareng rouge هي استعارة انجليزية شائعة، تعني: استطراد غير مفيد مُضيع للبحث (هامش المترجم).

7 البيرونية Pyrrhonisme نسبة إلى بيرون Pyrrhon، وهو أب المذهب الريبي (هامش المترجم).

تشكّل الأساس الحقيقي لمذهبه في التسامح. إنه يتولّد من اليقين الواضح للعقل الإنساني في إدراكه للمبدأ الأساسي للأخلاق، الذي يعطيه بايل تعريفا علمانيا تماما **في فرنسا الكاثوليكية للغاية**، حينما يشير إلى «هذا الإيثار العام الذي ندين به لكل البشر، من خلال الواجبات الإنسانية التي لا غنى عنها» (ط. لابروس، ص. 72)، ويشير لاحقا إلى أفكارنا [الطبيعية] لـ «الإنصاف» (ص.77). هذا المبدأ الأول للأخلاق هو مبدأ «عقلاني» و«طبيعي»؛ يؤسس لـ «قواعد التحضّر والاستقامة» (الشرح الفلسفي، ص. 83).

وأكثر من ذلك، فإنه بناء على هذه البديهيّة العقليّة، يجب أن يحكم الإنسان على أصالة الكتاب المقدّس:

«أنّ النور الطبيعي، أو المبادئ العامة لمعارفنا، هي القاعدة الأساس والأصل لكل تأويل للكتاب المقدس، وأساسا في ما يتعلق بالأخلاق» (الشرح الفلسفي، ص. 85).

لقد رأينا سابقا أن الرجوع إلى العقل في هذا المجال -كما في كل المجالات الأخرى- طبيعي وضروري:

«أعرف جيّدا أن هناك بديهيات لا تَكسِب ضدها عبارات الكتاب المقدس، الأكثر تعبيرا والأكثر وضوحا، شيئا كعبارات الكل أكبر من جزئه؛ وقاعدة أنه عند طرح أشياء متساوية من أشياء متساوية، فإن الأشياء المتبقّية تبقى متساوية؛ وقاعدة أنه يستحيل أن يكون نقيضان اثنان حقيقيين، أو أنّ جوهر موضوع ما يبقى حقا بعد تدمير الموضوع. عندما يُظهر المرء مائة مرة في الكتاب المقدس نقيض هذه القضايا؛ وعندما يقوم بألف وألف معجزة، أكثر من موسى والرُّسل لإقامة المذهب المعارض لهذه البديهيات الشاملة للحس السليم، فإن الإنسان يتصرف كما لو أنه لا يعتقد بها شيئا؛ وسيفضل إقناع نفسه بالأحرى، إما بأن الكتاب المقدس لا ينطق إلا مجازا أو بأباطيل، أو أنّ هذه المعجزات آتية من الشيطان، بدل الاعتقاد بأن النور الطبيعي خاطئ في هذه البديهيات» (نفس المصدر السابق، ص. 87-86).

لأجل هذا يؤكد بايل الوضوح العقلي للمبادئ الأولى، ويساوي مبادئ الأخلاق بالبديهيات المنطقية:

«إنّ العقل المنتبه والمتفلسف، يدرك بوضوح أن النور الساطع والمتميّز، الذي يصاحبنا في كل مكان وزمان، والذي يُظهر لنا أنّ الكل أكبر من جزئه، وأنه من الاستقامة أن يعترف المرء بالجميل إزاء من أحسنوا إليه، وأن لا يفعل للآخر ما لا يريد أن يفعله له الآخر، وأن يكون صادقا في وعده، ويتصرف حسب ضميره، أقول إنه يدرك بوضوح أن هذا النور آت من الإله، وأنه وحي طبيعي: كيف سيتخيّل إذن أن يأتي

الإله بعد هذا ليناقض نفسه، ويغيّر مواقفه، بحديثه إلينا بشكل خارجي، أو بإرساله أشخاصا آخرين إلينا لتعليمنا كل ما هو مناقض للمفاهيم المشتركة للعقل؟» (نفس المصدر السابق، ص. 93).

وقد خلُصنا إلى أنّ هذه الأخلاق، «العقلانية» و«الطبيعية» هي أساس إقرارنا بالأخلاق الإنجيلية. إن النور الطبيعي يُجيز الوصيّة الإنجيلية «أن لا نفعل للآخر ما لا نريد أن يفعله لنا»[8]. هكذا يثبت بايل، أن مذهبه في التسامح لا يتولّد عن الريبية وإنما عن الحق الطبيعي الواضح للجميع.

إن مقدّمات موقف بايل كما درسناها في المقال السابق تكمن هنا. فما هو مذهب التسامح الذي يؤسسه بايل على هذه المقدمات؟

فأولا، إنّ وضوح مبادئ الأخلاق عنده يسوّى بوضوح بديهيات المنطق: هذا الوضوح يفرض نفسه على الطبيعة البشرية؛ ولا يمكن الابتعاد عنه إن لم يكن بفعل إهمال أو خُبث (الشرح الفلسفي، ص. 296). والجهل في هذا المجال «غير مبرَّر» (نفس المصدر، ص. 297).

ثانيا، يميّز بايل بشدّة بين مبادئ الأخلاق هذه من جهة، و«الحقائق التأمّلية» أو «الحقائق الخاصة» من جهة أخرى؛ أي «الأسرار الخفية» التي هي «مسائل جدلية». في هذا المجال الأخير، يسود عدم اليقين: فالعقل لا يتيح تأسيس تأويل للمذهب «الأرثوذكسي» أفضل من غيره. والأفراد يترسّخون في اعتقاداتهم بالتربية والعادة، ويحترمون قناعاتهم بواسطة الذوق والحماسة، بكل قوة الأهواء والمصالح. وإنّ عدم اليقين هذا، الذي يمثّل مصدرا محتّما للنزاع، هو ما يستلزم التسامح ومذهبا للتسامح يكون مؤسَّسا على العقل.

وإنّه في سياق هذه «الحقائق الخاصة» للمذهب، يستعيد بايل تقريره عن الجدل بين جون كلود Jean Claude وبيير نيكول Pierre Nicole حول وضع السلطة والفحص[9]، ويستخلص:

«[بفحص الكتاب المقدّس، الذي أثاره كلود Claude، لا يمكننا الوصول إلى] فكرة واضحة جدا ومتميّزة جدا، إلى درجة أننا نشعر بشدّة، أنّ الشيء لا يمكن أن يكون إلاّ هكذا، بعد اعتبار جيد لكلّ أسباب الشك، أعني كل حالات المعارضين» (نفس المصدر، ص. 325).

لكنّ فحص سلطة الكنيسة، الذي أثاره نيكول Nicole، يواجه نفس الصعوبات:

---

8 «كل ما تريدون أن يفعله الناس لكم، افعلوه أنتم أيضا لهم، لأنها الشريعة والأنبياء» (متى 7، 12)؛ «ما تريدون أن يفعله الناس لكم، افعلوه لهم كذلك» (لوقا 6، 31).

9 *Nouvelles de république des lettres*, novembre 1684, art. I: compte rendu de Pierre Nicole, *Les Prétendus réfo - més convaincus de schisme* (Paris, 1684).

نشير إلى أن هذا المنشور هو رد على **الدفاع عن الإصلاح** (كيفيلي Quevilly، 1673) الذي أجاب كلود Claude من خلاله عن **الأحكام المسبقة المشروعة ضد الكالفانيين** (باريس، 1671) لنيكول Nicole.

«باختصار، فلا بالكتاب المقدس، ولا بالنور الطبيعي، ولا بالتجربة يمكن أن نعرف بشكل يقيني أنّ الكنيسة معصومة» (نفس المصدر، ص. 326).

استحالة بلوغ اليقين هذه، المتعلقة بـ «الحقائق التأملية» -أو «الحقائق الخاصة»، أو «الأسرار الخفية»- تؤسس لضرورة التسامح في هذا المجال: الله لا يطلب منا أن نكون مقتنعين بالحقيقة المطلقة؛ إنه يكتفي بالحقيقة الظنّيّة:

«يكفي كل واحد أن يستطلع، بإخلاص ونية حسنة، الأنوار التي منحها الإله له، وأن يتعلّق، تبعا لذلك، بالفكرة التي تبدو له الأكثر عقلانية والأكثر اتفاقا مع إرادة الإله. إنه بهذا السلوك يكون أرثوذكسيّا تجاه الإله» (نفس المصدر، ص. 327)[10].

هكذا يمسك بايل، كما رأينا، بطرفي السلسلة. فيصرّح بتوافق العقل مع العقيدة على مستوى الأخلاق: العقل يُجيز ويصادق على المبادئ الأساسية للأخلاق المسيحية. وفي الوقت نفسه، يقرّ بأنّ الأفراد يحترمون عقيدتهم المرتبطة بـ «الحقائق الخاصة» -أو «الأسرار الخفية»- ليس اعتمادا على العقل، وإنما بواسطة الذوق والحماسة- ومن هنا ضرورة التسامح.

ثالثا، إذْ يشدّد بايل على أنّ الجهل بالقانون الأخلاقي «غير مبرَّر»، فإنه ليس هناك إذن، أيّ تسامح بالنسبة إلى انتهاكات المبادئ الأخلاقية - ما مدى التسامح الذي يجب إعطاؤه للأفراد المختلفين في الرأي -في القناعة- حول «الحقائق التأملية»؟ إنه كبير جدا، ذلك أنه يجب أن يُترك كل فرد ليسترشد ضميره حول مسائل من هذا النوع. هذا التسامح يتولّد عن طبيعة القناعة والعقيدة نفسها:

10 لقد أعرب بايل عن نفس الموقف في **الرسائل النقدية الجديدة:** «سنتصرف بشكل أفضل، إذا لم نتورّط أبدا في الحكم على أسرار العناية الإلهية، كما يفعل العديد من الأشخاص من هذا الحزب وذاك.»

(*OD*, II, p.173a)؛ انظر أيضا (نفس المصدر، *OD*, II, p. 334b)، وشروحات [ماريا كريستينا بيتاسي وهوبيرت بوست وإيلودي أركو]:

M.-C. Pitassi, «Fondements de la croyance et statut de l'Écriture: Bayle et la question de l'examen», in H. Bost et A. McKenna (dir.), *Les «Éclaircissements» de Pierre Bayle*, Paris, Honoré Champion, 2010, p. 143-160

H. Bost, «Souffler le chaud et le froid sur les fidèles: place du zèle et rôle du pasteur dans le *Traité de la dévotion* de Pierre Jurieu», in C. Bernat et F. Gabriel (éd.), *Critique du zèle. Fidélités et radicalités confessionnelles dans la modernité (France, XVIe-XVIIIe siècle)* (Paris, Presses de l'ENS, 2013)

É. Argaud, «Le plaisir et le zèle: la cohérence d'une anthropologie du plaisir pour relire le *Commentaire philosophique*», et «"Quels travers d'esprit !": zèle et discernement entre les plaisirs chez P. Jurieu et É. Saurin. Le contexte épicurien de la rédaction du *Commentaire philosophique*»,

وهما فصلان من أطروحته (جامعة سانت ايتيان) التي ستصدر تحت عنوان **الاستراتيجيات الحجاجية لبيير بايل**.

«إن طبيعة الدين تكمن في كونه نوعا من اقتناع النفس في علاقتها بالإله، الذي يُولّد في الإرادة الحبَّ، والاحترامَ والارتياعَ الذي يستحقه هذا الكائن الأعلى، وفي أعضاء البدن العلامات الملائمة لهذا الاقتناع ولحال الإرادة هذا» (الشرح الفلسفي، ص. 99).

إنّ هذا التعريف للعقيدة -أو لاعتقاد الروح- هو ما يمنع العنف كوسيلة للإقناع:

«إذا أردنا إذن، أن نتصرف وفق طبيعة الأشياء، ووفق هذا الأمر للعقل السليم، والعقل السيادي الذي على الإله نفسه استطلاعه، فإنه لا يجب علينا الاستعانة، من أجل إقامة الدين، بما هو غير قادر على إقناع الروح وطبْع محبّة الله والارتياع منه في القلب من جهة، وقادر جدا من جهة أخرى، على توليد أفعال خارجية في أعضاء الأبدان، التي لا تكون أبدا علامة على حالة دينية للنفس، أو تكون علامة معارضة لحالة داخلية للنفس» (نفس المصدر، ص. 99-100).

ممنوعةٌ إذن، تلك الوسائل التي تولِّد أفعالا منافقة، أفعالا مناقضة لاعتقاداتنا الشخصية:

«إن الإكراه غير قادر على إلهام الدين، بل إنّ العنف من جهة غير قادر على إقناع الروح وطبْع محبّة الإله والارتياع منه في القلب، وقادر جدا، من جهة أخرى، على توليد أفعال خارجية في أبداننا، لا تكون مصحوبة بأيّ حقيقة داخلية [...] بمعنى أنّ هذه الأفعال الخارجية، هي إما نفاق وإيمان سيّئ، أو تمرُّد ضد الضمير» (نفس المصدر، ص. 100).

إنه مبدأ واضح، في نظر بايل، أنّ على كل إنسان اتّباع نور عقله. من واجب كل واحد اتباع هذا النور: إنه مَطْلَب يتولّد عن الطبيعة الإنسانية. ومن هذه المقدمات يستخلص بايل ضرورة اتباع الضمير:

«أستخلص بصورة مشروعة من كل هذه المبادئ، أنّ أُولى التزاماتنا وأشدَّها إلحاحا، هي عدم التصرّف قطّ ضدّ إلهام الضمير، وأنّ كل تصرّف يتم فعله ضد أنوار الضمير يعَد شنيعا بالضرورة؛ من حيث أن قانون حب الإله لا يتحمل الإعفاءَ أبدا، بسبب أنّ مقْت الإله عمل شنيع بالضرورة؛ هكذا فإن قانون عدم الإساءة لأنوار الضمير هو ما لا يمكن أبدا للإله إعفاءَنا منه، نظرا إلى أنه سيسمح لنا حقا باحتقاره أو مقْته، وهو فعلٌ آثم جوهريا وطبيعيا. هناك إذن قانون خالد وثابت يفرض على الإنسان، تجنّبا لأعظم خطيئة يمكن أن يرتكبها، أن لا يفعل شيئا ضد ضميره» (نفس المصدر، ص. 282).

ومن هذه الضرورة، تستخلص حقوق الضمير الضال:

«من هنا أستخلص من جديد، أنه من المحال أن يسمح الإله، للحقيقة بأن تفعل من أجل إقامتها، أيّ فعل لا يكون عادلا ومن الحق المشترك لجميع الأفراد، لأنه في التركيب الذي توجَد عليه الأشياء، سيكون من الضرورة الحتمية أن يصبح كل ما هو مسموح به للحقيقة ضد الخطأ، مسموحا به للخطأ ضد الحقيقة؛ وهكذا بنفس القرار الذي سيعفي الدين الصحيح من القاعدة العامة، سيصبح الجرم ضروريا، وتختلط الأمور ببعضها البعض» (نفس المصدر، ص. 287).

تتولّد حقوق الضمير الضال إذن، من الالتزام المفروض على كل واحد، بأن يتبع ضميره. الحدود الوحيدة المفروضة على هذا الحق الطبيعي للضمير هي، من جهةٍ، وضوحُ المبادئ الأساسية للأخلاق ـ لقد رأينا أن الإنسان آثم بالضرورة، بسبب الإهمال أو الخُبث، إذا رفض قبول هذه المبادئ أو الخضوع لها؛ من جهة أخرى يفرض النظام العام أيضا هذه الحدود. لن يسمح الحاكم لمثل هذا الرجل باتباع ضميره، إذا كان يُملي عليه سلوكا مخالفا للنظام العام.

في هذا الملخص المختصَر لدرس **الشرح**[11]، تبرُز مباشرةً، الصعوبةُ الكبيرة التي تسمّم التفسيرات حول هذا النص الرئيسي لبايل، والتي تم استنكارها فورا من طرف جوريو Jurieu في ردّه **حقوق سيّدَين** (روتردام 1687، 12°) ومن طرف جون لوكليرك Jean Le Clerc في تقريره عن **الشرح الفلسفي** (المكتبة العالمية والتاريخية، 1686، مقال [XVI]). في البداية، إنّ الضمير هو «هذه الفكرة الطبيعية للإنصاف، التي تنير، كما ينير النور الميتافيزيقي، كل إنسان آت إلى العالم». لا يزال بايل وفيّا للتعريف الذي كان قد قدّمه سابقا في دروس الفلسفة في سودان (1675-77) -سبق ذكره- الذي يؤكد فيه وجود نور طبيعي يتيح لنا اكتشافَ، بصورة لا تُخطئ، قاعدة الصحيح وغير الصحيح:

«على الرغم من أنّ الخطيئة قد حجبت العقل الإنساني، إلا أن الإله لم يُرد السماح أبدا لنوره أن يُطفَأ بالكامل. هناك قانون للطبيعة، يدركه الناس جميعا دونما قواعد أو تعاليم، وهو الذي يضع تمييزا بين الخير والشر. هناك إذن، فيما يتعلق بالأخلاق، بعض المبادئ حيث يكفي النور الطبيعي لمعرفة الحقيقة».(دروس، الأخلاق، أعمال مختلفة، IV، 259).

هناك إذن، كما كان قد صرّح بذلك، قانون طبيعي، أو أخلاق عقلانية أو طبيعية، أو دين طبيعي ينكشف للضمير بصورة لا تخطئ:

«إن الأخلاق ليست شيئا آخر غير نور يشعّ في النفس، بفعل قوته ليس هناك أبدا إنسان لا يستكشف المبادئ العامة الأولى للأخلاق دونما حاجة إلى تعليمها له [...] هذا النور الطبيعي الذي نقرّ من خلاله

11 المقصود كتاب **الشرح الفلسفي** لبايل (هامش المترجم).

بمبادئ الأخلاق يُسمَّى ضميرا [...] من الأخلاق الطبيعية تُشتق الأخلاق المكتسَبة [...] تستمد قوانين وتعاليم الأخلاق عدالتها من مطابقتها لهذا العقل السيادي الذي أراد الإله من خلاله لكل شيء أن يكون محسوما...» (نفس المصدر، ص. 261-262).

لكن إذا كان هذا النور يشعّ بصورة لا تخطئ، ويكشف لنا المبادئ الأولى بصورة يقينية مطلقة، فكيف يحدث أن تكون مسألةَ «ضميرٍ ضالٍّ» ولماذا يحتاج هذا الضمير إلى «تسامح»؟ على ما يبدو، فإنّ لفظ «ضمير» قد استُخدم بمعنيين مختلفين جدّا: نور العقل المعصوم من الخطأ من جهة، والقناعة الفردية الذاتية من جهة أخرى، ومن المقبول أنَّ هذين المعنيين قد يتعارضان.

نَعلَم أن جْيونْلوكا موري G. Mori[12] اقترح تفسيرا لهذا الغموض: كان بايل يتردّد بين الضمير كقانون عقلاني يكشف عن الصحيح، والضمير كشعور مشوَّش مؤسِّس لقناعاتنا دون أن نتمكن من تفسير الأسباب، ويقترح تعريفا مستخلَصا من **قاموس** فيروتيير Furetières لتأييد هذا المعنى المزدوَج. فما مصدر هذا الغموض وما العلاقة بين هذين المعنيين للَفظ «ضمير»؟ يتولّد الغموض بشكل طبيعي، في نظري، من التمييز بين مجالات العقل والعقيدة: ففي مجال الأخلاق، يدرك العقل المبادئ في يقين الوضوح؛ وفي مجال «الحقائق الخاصة» (أو «التأملية») يكون العقل محجوبا بالتربية والعادة، بالحب الذاتي والأهواء، بالذوق والحماسة. ليس هناك أيّ سبب واضح لتفضيل تأويل من هذا النوع للأسرار الخفية (الثالوث، التجسّد، الخطيئة الأصلية، الفداء...) على غيره: فكل واحد يتّبع قناعته. والضمائر تُخطئ -في هذا المجال- بحسب تعدد الأذواق. وهذا التعدد في مجال اللاهوت غير مبال تماما بما يتعلّق بالخلاص: هذه النُّهُج الضالة لا تشكّل «إساءة للإله»[13]. نتبيّن هنا جذرية التمييز الذي وضعه بايل بين الحقائق الواضحة والشاملة للأخلاق

12 G. Mori, *Bayle philosophe*, Paris, Honoré Champion, 1999, p.295-304

انظر أيضا

Nouvelles lettres, *OD*, II, 334b

المذكورة من قبل

G. Mori, *ibid*., p.299n.

إنّ هذا التمييز نفسه، بين معنَيَي «الضمير» هو الذي تَمّ تعيينه من قبل ماريا كريستينا بيتاسي M.-C. Pitassi كتمييز بين «الحق» و«الواقع»، يعني بين أمر العقل والوضوح (*Commentaire philosophique*, Partie I) وتعثرات القناعة الذاتية تحت وطأة الأحكام المسبقة، التربية والعادات (*Commentaire philosophique*, Partie II): انظر

M.-C. Pitassi «Bayle, la Bible et la tradition remontrante au temps du *Commentaire philosophique*», in *God's Word Questioned: Biblical Criticism and Scriptural Authority in the Dutch Golden Age*, colloque Utrecht, 2012 (à paraître).

13 انظر

Pensées diverses, §200, éd. Prat-Rétat, p.179-181

و«الحقائق الخاصة» للاّهوت: كل «الحقائق الخاصة» -الحقائق الدينية بشكل خاص- تُحال إلى مجال الأشياء غير المبالى بها adiaphora. وحدها الأخلاق تبقى ضرورية؛ مكتفية بذاتها.

وعلينا أن نُذكّر بأنّ بايل يبيّن نتائج هذه العقلانية الأخلاقية. فهو مع مالبرانش، يرفض مذهب خَلق الحقائق الخالدة الديكارتي، ويتحمّل نتائج هذا الرفض:

«إن كان ثمة مُحَصِّلات لحقيقة خالدة هي كذلك بطبيعتها وليست من قبل تأسيس إلهي، وإذا لم تكن حقيقية بفعل قرار حرّ لإرادته، ولكن مقابل ذلك، عرَفها حقيقية بالضرورة، لأنها كذلك من طبيعتها، فههنا نوع من القدَر fatum الذي يخضع له، ههنا هي ضرورة طبيعية لا يمكن تخطّيها إطلاقا» (أفكار مختلفة، §114).

في الواقع، وكما سيُذكّر بذلك ويشير إليه لاحقا، إن إلزامية القانون الأخلاقي عقلانية وليست «إرادوية»: ليست مفروضة ببساطة من قبل الإرادة الإلهية:

«لنتجاهل هذه العقيدة [وجود الله]، لنُنكرها حتّى، ولكنّنا لن نتخلى عن الحكم بأن الدائرة ليست مثلثا أبدا، وأنّ السفسطة تفكير سيّئ، وأنّ نتيجة قياس منطقي صحيحة إن كانت المقدمتان صحيحتين، وأنه جدير بالإنسان أن يمتثل للعقل، إلخ. [...] وأنّ خيانة صديق صفة أخلاقية سيّئة، وأنّ إخلاص المرء لصديقة صفة أخلاقية حسنة» (إجابة عن أسئلة قروي، III، §29).

الأخلاق مستقلة عن العقيدة: هذه القناعة القوية، المُعرَب عنها منذ حقبة **الأفكار المختلفة**، تفرض منطقها على مذهب التسامح.

يسعى بايل إلى تعريف التسامح. ومن الضروري التمييز بين المستويات الثلاثة لتحليله[14]: 1) مبادئ الأخلاق المُدرَكة بالعقل، 2) الأخلاق الدينية (وسلطة الكنيسة)، وأخيرا 3) السلطة السياسية للدولة؛ فالعقل ينظر في مطابقة الفعل لمبادئ الأخلاق؛ والكنيسة تنظر في أرثوذكسية الاعتقاد؛ والحاكم السياسي ينظر في توافق السلوك الناجم عن الاعتقاد مع النظام المدني. وكما رأينا أعلاه، فإنّ مطابقة الأخلاق الدينية للأخلاق العقلانية (أو الطبيعية) هي ما «يُجيز» الأخلاق الإنجيلية: هذه الملاءمة تسمح لنا، في الواقع، بالاعتقاد بالإنجيل وحيًا إلهيًا. من الممكن جدا أن تسمح الدولة بعدد من الأفعال التي تُعتبر أخطاءً على المستوى الأخلاقي وآثاما بالنسبة إلى الكنيسة (المداهنة والكذب على سبيل المثال)؛ من الممكن أيضا أن تُحَرِّض

14 التمييز الذي أقامه بايل بين مختلف «مجالات» السلطة (عقل/ ضمير/ كنيسة/ دولة) هو من أجل المقارنة بالتمييز الذي أقامه روجر وليام Roger Williams (حوالي 1603-1680) في الميثاق الملكي لتأسيس مستوطنة رود آيلند Rhode Island الجديدة، ثمّ تناوله في عدد أخير ل *Etudes théologiques et religieuses*, hors série «Genèse religieuse de l'Etat laïque» (2013), dir. M. Boss.

الكنيسة أتباعَها على أفعال تحظرها الدولة (رجال الدين قَتَلَةُ الملك régicides أو المحتجّون على السلطة المطلقة للملك monarchomaques): إنه حال الكاثوليك. يوضّح بايل هذه الحالة في الفصول الأخيرة **للملحق**[15]؛ كان ذلك هو الدافع (الخضوع لحاكم أجنبي) الذي من أجله يستثني لوك الكاثوليك من التسامح الذي دعا إليه في **رسالته**[16]. يهدف كل حجاج بايل إلى البرهنة على أنّ الاضطهاد الديني (الذي ترتكبه القوى العسكرية تحت إمرة الدولة) مناقض للدين الموحى به، لأنه يتعارض مع مبادئ الأخلاق الطبيعية والعقلانية.

إنّ حكم الكنيسة على المذاهب واستبعاد مثل هؤلاء الهراطقة من ارتياد الكنيسة، لا يعتبره بايل إكراها. سيوجه رجال الكنيسة بشكل طبيعي حجَجَهم الدفاعية ونداءاتهم لغير المخلِص كي يغيّر رأيه في المذهب والعودة إلى الكنيسة؛ فإن لم يقتنع بهذه الحجج سيتوجب عليه قبول استبعاده، لكن الكنيسة لن يكون لها الحق في إجباره، ببعض الأفعال أيّا كانت، على تغيير قناعته. ستكون الكنيسة، علاوة على ذلك، مضلِّلة أيضا بعرضها مكافأةً نظيرَ تغييره لقناعته وتبنّيه للعقيدة التي يرفضها، لأنها بذلك ستُغري ضميره وتكون مسؤولة إن استسلم لهذا الإغراء عن ضعفٍ بتغيير قناعته، بناءً على مبدأ المصلحة المادية. من الواضح أننا نفكر في صندوق الهِدايات[17].

أمّا من جانب الدولة، فلا يُعتَبر خطأً، منعُ الحاكم لهذه العقيدة أو تلك لأسباب سياسية منسجمة مع غاية الدولة المتمثلة في الحفاظ على النظام الاجتماعي (إنه مبدأ؛ المواطنون سيتبنّون دين من يحكمهم hujusregio, ejusreligio). ليس من الضروري أن تكون الفوضى الناشئة من طرف هذه العقيدة حقيقية؛ يمكن للفوضى أن تقوم في المخاوف الخرافية للأغلبية التي تتمسّك بهذه العقيدة بكراهية وتربك النظام الاجتماعي في اضطهادها الجائر للأقلية المُدانة. قد يعتقد المرء أنه من واجب الحاكم حماية مواطنيه إن تعرّضوا للاضطهاد جورا (نقصد بصورة واضحة الهوغونت[18] واليهود)، لكن يمكن للحاكم أن يُعلن بأنه لن يستطيع تجاوز الفوضى، وأنّ أقصر طريق لوقف الاضطرابات الاجتماعية يكمن في استبعاد

15 المقصود هنا كتاب **مُلحق الشرح الفلسفي** لبايل (هامش المترجم).

16 انظر

J.-F. Spitz, «Quelques difficultés de la théorie lockienne de la tolérance», in F. Lessay, J. Rogers et Y.-C. Zarka (dir.), *Les Fondements philosophiques de la tolérance*, Paris, PUF, 2002, 3 vol., I, p.114-150; J. Israel, *Enlightenment contested. Philosophy, modernity and the emancipation of man, 1670-1752*, Oxford, OUP, 2006, chap. 6: «Locke, Bayle and Spinoza: a contest of three toleration doctrines», p.135-163;J.W. Marshall, *John Locke, toleration and early Enlightenment culture*, Cambridge, CUP, 2006; G. Mori, «Atei et cattolici: i limiti della toleranza tra Locke e Bayle», in C. Hermanin et L. Simonutti (dir.), *La Centralità del dubbio. Un progetto di Antonio Rontondò*, Florence, Olschki, 2011, p.851-870

17 بعد إلغاء مرسوم نانت، تمّ إنشاء صندوق من أجل مكافأة مالية علانية للمصلحين (البروتستانت) البارزين، الذين قبلوا التحوّل إلى الكاثوليكية (هامش المترجم).

18 الهوغونت huguenots يُطلق على البروتستانت المنشقين عن الدين الكاثوليكي للدولة الفرنسية آنذاك (هامش المترجم).

المؤمنين من الأقليات. هذا الفعل مشروع تماما؛ هو ليس فعلا أخلاقيا في نظر بايل (الملك «سيتولى الله محاكمته نتيجة لهذا الفعل»)، لكنه ليس في حد ذاته فعلا اضطهاديا. «سيكون كافيا» للأقليات أن تغادر امتثالا لكلمة المسيح:

«حينما يتمّ اضطهادكم في مدينة، فرّوا إلى أخرى» (متى 10، 23؛ كلام ذَكره بايل في **الشرح الفلسفي**، I، iii، أعمال مختلفة، II، ص. b373/ ط. ج.-م. غرو، ص. 107، وفي **بلاغ للاّجئين**، أعمال مختلفة، II، ص. 617a/ ط. ج. غرو، ص. 246).

في الواقع، إنّ الاضطهاد الجائر الذي كان الهوغونت ضحيته لم يكن في استبعادهم، وإنما، على العكس من ذلك، كان في منعهم من الرحيل وإلزامهم باعتناق دين آخر. إن القوة الممارَسة ضد قناعة ضميرهم هي ما يشكّل الاضطهاد الذي يرفضه بايل -هو اضطهاد دافع عنه الكاثوليك استنادا إلى كلام المسيح «أرغمهم على الدخول» (لوقا 10، 23) الذي أوّله أوغسطين.

يدافع بايل عن حقوق الضمير الضال تجنّبا لما يسميه مصادرة على المطلوب: «لديّ الحق في اضطهادكم لأنني على حق؛ وليس لديكم الحق في اضطهادي، لأنّ عقيدتكم خاطئة». في هذا السياق، من المثير للدهشة أننا نراه يستبعد الملحدين من التسامح المؤسَّس على معايير الأخلاق - بمعنى لا على المستوى الديني (الذي تحدده قرارات هذه الكنيسة أو تلك)، ولا على المستوى السياسي (قرار الحاكم لأسباب مرتبطة بالنظام الاجتماعي)، وإنما بالطبع على مستوى المبدأ العقلاني للأخلاق. كان مطمَحي الأول في هذا المقال، هو التحقق ببساطة من التفسير الجاري لهذه النقطة: يستبعد بايل الملحدين «قولا»[19] أو «تكتيكيا». ماذا يعني هذا بالضبط؟ إنّ بايل في الجزء الثاني، من الفصل التاسع، من **الشرح الفلسفي**، يطرح سؤال التسامح مع الملحدين. هل من الصواب إدانة الملحدين. ويجيب: 1) من المعتاد القيام بذلك؛ 2) المرء محق في فعل ذلك، لأنهم ينتهكون القانون الذي يحظر الإلحاد... 3) إنّ السلطة المدنية تفعل كل ما تراه مناسبا... ويختم: «لا أصرّ على هذه الإجابة؛ أنا متأكد من أن القرّاء الأكثر قدرة على الفهم سيستشعرون أولا كل قوتها (ط. ج. -م. غرو، ص. 300-301). في الواقع، نحن نستشعر كل ضعفها، لأنه يتظاهر، من خلال الرجوع إلى العقيدة والشرطة، بحل مسألة كان قد طرحها على مستوى الأخلاق! هو في النص، يضع موضع تساؤل «ضميرَ» الملحدين و«حماستهم إزاء الحقائق السماوية»: لكن، في كتابته الأخيرة، يمنح بالضبط للضمير الأخلاقي -يعني للعقل- للملحد وضعا تفضيليا، لأنه الوحيد الذي يمكنه فعل الخير دون رجاء في مكافأة، هو

19 «du bout des lèvres»: هي عبارة فرنسية تعني «مجرد كلام»؛ أي أشياء نقولها بفمنا -أو بشفاهنا- دون أن تكون معبّرة عن العمق (هامش المترجم).

الوحيد، لأنه ينظر إلى الخير بما هو خير فقط. الملحد هو تبعا لذلك، الوحيد الذي يفعل فعلا فاضلا حقيقيا[20]. نُنهي سريعا إذن هذه النقطة: رفضُ الإلحاد يؤسَّس على لعب مكشوف بالكلمات وبايل يفعل كل ما يَلزَم من أجل إبراز هذا الإيهام الساخر.

نعود إلى الإشكالية الأساسية في قلب **الشرح الفلسفي**، المتولّدة عن التضارب الظاهر بين المبدأين المؤسِّسين لتفكير بايل، الواضحين أيضا في نظره: الوضوح العقلاني لمبادئ الأخلاق وحقوق الضمير الضال. بالتأكيد، يدرك بايل جيدا الحجة على ألكميني Alcmène وكل الحجج المشابهة: ما نفعله عن حسن نية، معتقدين أننا نفعل خيرا، هو فعل بريء وكل واحد يقع على عاتقه واجب التصرف حسب ضميره، يعني بواسطة العقل الذي هو مرشده؛ فعن طريق العقل والحُكم، يمتثل لمبادئ الصحيح والخيّر كما تعرَّف عليها، فإن أخطأ، فمن خلال مبدأ الفضيلة وإرادةٍ لفِعلٍ حسن، بالتالي فعل ذلك ببراءة[21]... لكن الدفاع عن حقوق الضمير كمبدأ مؤسِّس للتسامح يتّسم بالتناقض لأن حقوق الضمير يمكنها السّير على نحو مضاد لمبادئ التسامح: إنه اعتراض المضطهِد عن حُسن ضمير وحسن نية. يقود بايل هذا الاعتراض إلى حد القول إنّ المضطهِد يفعل ببراءة ما لا يفعله من غير جرم، لكن استخلاص حقوق الضمير الضال من تعريفه للتسامح، يؤدي إلى حالة غير مُرضية على مستوى الدفاع الأخلاقي عن التسامح، لأنه يمكن للمضطهِد أن يعتقد نفسه ببراءة مجبرا على اضطهاد قوانين الأخلاق الطبيعية وخرقها: إنه أخلاقيا وبشكل متضاد، بريء وآثم؛ وأكثر من ذلك، هو مدفوع بضميره إلى ارتكاب جريمة...

هذه المفارقة، وغموض كلمة ضمير في **الشرح الفلسفي**، آثارا اعتراضات من طرف جوهن كريستيان لورسن J. C. Laursen[22]، الذي يؤكّد على النصوص التي يوحي فيها بايل نفسُه بتأثير التربية، والعادة،

20 لن أستفيض هنا في هذه النقطة: انظر

G. Mori, *Bayle philosophe*, chap. 5.

21 انظر تعليقه الممتع على امفيتريون *Amphitryon* في **الرسائل الجديدة النقدية**. **الرسالة التاسعة**. «**التي تمّ الحديث فيها عن الضمير الضال وعن الأخطاء عن حسن نية**». **الاعتراض السادس**. §XIII، والتحفّظات التي يبديها على «الجهل القاهر»، نفس المصدر، §XIV: «يمكن القول، في المقام الثاني، أنه رغم كون الأخطاء المتنكرة بلباس الحقيقة تتمتع بكل حقوق الحقيقة، فإنه لا يتْبَع ذلك أنّ ممارسة هذه الحقوق بريئة دائما. سيتم، في يوم من الأيام، اطّلاع الإله على كل ما فعلناه، نتيجة للأخطاء التي ارتكبناها من أجل عقائد حقيقية: وَوَيْل في هذا اليوم الرهيب، لمن أعموا أنفسهم عمدا؛ لمن غاصوا في كسل جبان، لم يشاؤوا تكلّف عناء فحص دينهم؛ وأخيرا لمن فضلوا دخول الأخطاء إلى عقولهم، لأنها تماشت مع أهوائهم المختلّة. لقد حصلوا على حق التصرف وفقا لأخطائهم، أعترف بذلك،؛ لكن مادام حقّا متحصّلا عليه بشكل سيّئ، والذي يستمدّ مصدره إما من خبث للقلب، أو من لامبالاة مدهشة، أو من كسل غير مبرَّر، فإنه لا يمكنه إلا تسميم كل الثمار التي ولّدها».

22 J.C. Laursen, «Skepticism against reason in Pierre Bayle's theory of toleration», in Diego E. Machuca, (dir.), *Pyrrhonism in Ancient, Modern, and Contemporary Philosophy*, Berlin, Springer, 2011, p.131-144

موقف مشابه اعتُمِد من قِبل وولتر ريكس

W. Rex, *Essays on Pierre Bayle and religious controversy*, The Hague, M. Nijhoff, 1965:

انظر إجابة أوكاثيساي S. O'Cathesaigh

S. O'Cathesaigh, «Bayle's *Commentaire philosophique*, 1686», *SVEC*, 260 (1989), p.159-182

بالخصوص ص. 179-181

والخرافة التي تحجب وضوح النور الطبيعي. كيف يمكن تأسيس مذهب للتسامح على عقل جاهز للتّطويع تحت تأثير ظروف الحياة وحوادثها. آل ذلك بج. ك. لورسن إلى تعيين أوجه عدم يقين العقل -منذ حقبة **الشرح**- كبذور عديدة لريبية ستمنع بايل من تأسيس أخلاق عقلانية، وتكتسح المعركة في النهاية بإقامة بيرونية عامة. إنه يرى هذه البذور تنمو في **القاموس**، في مقال «بيرون Pyrrhon»، وفي **الإيضاحات**، التي تؤكد كما يقول، المظهر الريبي لبايل...

هكذا يفسِّر كتقدّم نحو الريبية ما هو، في نظري، عكس ذلك تماما: يسعى بايل في **الشرح الفلسفي** إلى البقاء وفيا للعقلانية الأخلاقية ورسْمٍ جيد لحدود حقوق الضمير «الضال». والفصول الأخيرة للجزء الثاني من **الشرح**، تؤكد على دور التربية والعادة، و«الذوق» و«الحماسة» في قناعة الأفراد الذين ينضمون إلى هذا التفسير أو ذاك لِـ «الحقائق التأملية» للثيولوجيا: إنّ أنثروبولوجيا الخطأ هاته، لا تُقوِّضُ في شيء وضوحَ مبادئ الأخلاق العقلانية. علاوة على ذلك، إذا كان بايل آخذا في التقدم نحو الريبية، فيجب أن تختفي العقلانية الأخلاقية بدءا من اللحظة التي يتبنى فيها موقفا ريبيا في **القاموس** وفي **الإيضاحات**. لكن ما يحدث هو العكس تماما: إنّ بايل تحديدا في أعماله الأخيرة، يجدّد تصريحاته التوكيدية لصالح العقلانية الأخلاقية. وإنْ أغفلنا الموقف المعقَّد **للإيضاحات** حول أسرار الأخلاق المسيحية، فنحن ندرك مبادئ الأخلاق كإدراكنا لتعريف المثلث:

«فلنتجاهل هذه العقيدة [وجود الله]، فلنُنكرها حتّى، ولكنّنا لن نتخلى عن الحكم بأن الدائرة ليست مثلثا أبدا، وأنّ السفسطة تفكير سيّئ، وأنّ نتيجة قياس منطقي صحيحة إن كانت المقدمتان صحيحتين، وأنه جدير بالإنسان أن يمتثل للعقل، إلخ. [...] وأنّ خيانة صديق صفة أخلاقية سيّئة، وأنّ إخلاص المرء لصديقة صفة أخلاقية حسنة» (إجابة عن أسئلة قروي، III، §29).

إنّ الضمير المحجوب بالتعصب الديني، بالتحديد، هو ما يُدخل الشك، ويجعل تولّي الدفاع عن حقوق الضمير الضال إلى النهاية أمرا محالا، وذلك بالتحديد لأن المتعصّب الديني يعتقد نفسه مجبرا على اضطهاد الآخرين من أجل غرس عقيدته في نفوسهم بشكل أفضل. والحال أنه يخرق هكذا مبادئ الأخلاق الطبيعية.

»هل يمكنكم القول، سيدي، عند فحص كل هذا، أنّ إراحة المجتمع ستكون بناء على أساس متين، بدل إقامته على شيء [الدين] يضع السلاح في يد الحاكم ضد رعاياه، وفي يد جزء صغير من الرعايا ضد الدولة؛ شيء، أقول، بمجرد أن تنقسم المشاعر، يزرع الانقسام في العائلات، ويسلّح الأخ ضد أخيه، والزوج ضد امرأته، ويَنشر سحابة كثيفة للغاية في النفوس، حيث نرى كأعمال صالحة ما هو أكثر مناقضة لأفكار الإنصاف؟» (إجابة عن أسئلة قروي، III، §18).

سيوجه إتيان غِيوم Etienne Guillaume قسّ فرزنس Fresnes[23] في أوائل السبعينيات 1720، نظره إلى كل النصوص التي يُدين فيها بايل التعصب الديني:

«ما ارتكبته المسيحية من أعمال العنف، سواء لاستئصال وثنية الوثنية، أو لسحق الهرطقات، أو للحفاظ على الطوائف التي ستنفصل عن الجزء الأكبر من الشجرة، لا يمكن التعبير عنه، التاريخ يُشعرنا بالرعب منه، إننا نرتعش إذا كنّا طيّبين، لا يمكن لروح طيبة أن تقرأ ببراءة هذا النوع من الروايات[24]، لا يمكنها الامتناع عن لعْن ذكرى من كانوا سبب هذه الحرائق». (إجابة عن أسئلة قروي، III.21).

«[...] من المؤكّد أن إنسانا كهذا الذي لم يكن انتقاميا إلا بقدر ضعيف، يصير نمرا حينما تستولي على ضميره حماسة خاطئة». (إجابة عن أسئلة قروي، III.29).

يطوّر بايل، بفصاحة وسخط كبيرين، معنى بيتَيْ لوكريس Lucrèce الشعريين المشهورين، المذكورين هما أيضا:

ارتكب الدين أفعالا دنيئة وجاحدة Religio peperit scelerosa atque impia facta. (لوكريس، **عن طبيعة الاشياء** De Rerum Natura، 1. 83؛ إجابة عن أسئلة قروي، III، §17).

تمكّن الدين من إلهام الكثير من الهمجية للبشر Tantum religio potuit suaderemalorum. (لوكريس، **عن طبيعة الأشياء** De Rerum Natura، 1. 101؛ أفكار مختلفة حول المذنبات، §245؛ إجابة عن أسئلة قروي، IV، §27؛ القاموس النقدي والتاريخي، «أوبيرتان Aubertin»، ملاحظة (F)، «كَفيت Cavet»، ملاحظة (O).

في الواقع، يوضح بايل هنا من جديد أن مذهب التسامح؛ أي مذهب الضمير الضال، لا يمتد إلى الأخطاء المرتكَبَة ضد مبادئ الأخلاق. والتأكيد مجدّدا على هذه المبادئ في الأعمال الأخيرة يتمّ بشكل صريح على حساب الحقوق غير المحصورة للضمير: يؤسس بايل معركته على المبادئ الواضحة للأخلاق، وينتهي إلى حقوق الضمير المستنير - غير المحجوب بالتعصب والخرافة. بذلك، يرغب في الاعتقاد أنه لا يمكن لمضطهِد صريح وواضح أن يوجد. وبعبارة أخرى، إنه مجبر على تأكيد المصادرة على المطلوب التي أسَّست العقلانية الأخلاقية.

في الواقع، لِنعُد إلى تعريف الضمير كما نجده في أعمال بايل الأخيرة: إنه

23 فرزنس Fresnes: مدينة فرنسية (هامش المترجم).

24 روايات هنا ترجمة لكلمة relations (هامش المترجم).

«حُكم صادر عن العقل الذي يأمرنا بفعل أشياء، لأنها موافقة للعقل، والانصراف عن أشياء أخرى، لأنها مخالفة للعقل» (إجابة عن أسئلة قروي، III، §xxix).

والأفعال التي تعقُب هذا الحكم مصحوبة بمتعة أو حزن حسب توافقها مع فكرتنا عن الواجب الأخلاقي. يبذل بايل قصارى جهده لدعم فكرة أنّ الأخلاق الطبيعية هي نفسها عند جميع الأمم، لكن العبارات التي يقدم فيها حجته حول هذه النقطة تجعلها تظهر كحجة حشوية tautologique: يعترف أنّ مثالا مضادا كهذا يمكن أن يشكّل

«اعتراضا محرجا بالنسبة لأولئك [بمن فيهم بايل نفسه] الذين يقولون إنّ الله لا يسمح أبدا أن تكون الحقائق الخالدة للأخلاق غير معروفة للإنسان ومرفوضة بحُكمٍ تأمّلي للضمير» (أخبار جمهورية الآداب، شتنبر، 1686، مقال VII).

لكنه يقرّ في الأخير بأن من يتمرّدون على الأخلاق الطبيعية لا يجهلونها، وإنما يتعلق الأمر فقط بأخلاق منحَلّة. من الواضح أنه في ظروف كهذه سيكون من المحال إثبات أن الأخلاق الطبيعية غير معروفة لدى جميع الأفراد الذين يكون العقل عندهم يقظا قليلا على حدّ سواء. إن وضوح الأخلاق هو، بالتعريف، أنّ من لا يعرفونها مذنبون بسبب كسل أو خُبث (إجابة عن اسئلة قروي، III، §xxix: أعمال مختلفة، III، ص. 984). لقد تأسّس الدفاع عن حقوق الضمير الضال في **الشرح الفلسفي** على رفض مصادرة على المطلوب: «ليس لديكم الحق في اضطهادي لأن دينكم خاطئ؛ لديّ الحق في اضطهادكم لأن ديني صحيح»، لكن نرى أنه من أجل الإبقاء، بأي ثمن، على العقلانية الأخلاقية في وجه اعتراض «المضطهِد عن حسن نية» يتّجه بايل إلى تقديم مصادرة أخرى على المطلوب: أنّ كل من يتمرّدون على الأخلاق الطبيعية لا يجهلونها وأنهم مذنبون بسبب كسل أو خُبث[25]. نفهم إذن، أنه تم الحفاظ على العقلانية الأخلاقية على حساب الحقوق غير المحصورة للضمير الضال.

هكذا، يدافع بايل، في الأعمال الأخيرة، عن المقدمة المنطقية للعقلانية الأخلاقية بشن هجوم شرس ضد «الحماسة» المتعصبة التي تحجب النور الطبيعي. وقد سبق لبايل في حقبة **الشرح**، أن عرّف، بواسطة تطبيق ساخر لمبادئ بساطة المسالك الإلهية المالبرانشية، فائدةَ الحماسة الكاثوليكية:

25 معنى ذلك أن المسألة تتعلق، في نهاية المطاف، بتمرّدٍ فقط وليس بعدم معرفة عقلية. هذه الفكرة سيطورها كانط فيما بعد حين تناوله لمسألة الشر، معتبرا أنه إن كان ثمّة شرّ، فلأنّ الإنسان يعلم بالقانون الأخلاقي، ولكنه لا يسلك وفقه: «لا يمكن للقضية القائلة: إن الإنسان شرير، أن تعني، حسب ما قيل سابقا، سوى هذا: إنه واعٍ بالقانون الأخلاقي، وإنه، رغم ذلك، قد قبل بالانحراف (الظرفي) عنه في مسلّماته»، (إيمانويل كانط، **الدين في حدود مجرد العقل**، ترجمة فتحي المسكيني، جداول للنشر والتوزيع، بيروت-لبنان، 2012، ص. 83). (بتصرف) (هامش المترجم).

«إن العالم شرير بما ينسجم مع هذا النظام الثابت المتمثل في القانون السيادي للإله، أن يكون تعيسا وسخيفا في آن[26]. والحال أنّه ما دام الإله فاعلا حكيما إلى ما لا نهاية، فإنه يجب عليه معاقبة العالم بالطرق الأكثر قِصرا والأكثر إتقانا، ولا أعتقد إن كانت ثمة وسيلة أكثر إتقانا، أكثر قِصَرا، وأكثر فعالية لوضع النوع الإنساني في حالة يستحق أن يكون فيها بفعل خطاياه، حالة، أقول، من السخافة والمعاناة، من الإبقاء على الكنيسة الرومانية في ازدهار وائتمان كبيرين[27]. لا تخشوا أن يفوتَ الأفرادَ الآخرين أن يكونوا معذَّبين بألف طريقة، طالما أنّ كنيستكم مزدهرة. سيكون ذلك بلاءً للعدالة الإلهية، على استعداد دائما للتنفيذ، أنتم ضروريون إذن كقاض عادل للأفراد لتوفّروا عليه الإرادات الخاصة والمعجزات[28]، لأنه باتباع القوانين الطبيعية لوحدها، فإن العالم لا يمكنه تفادي الشقاء الذي يستحقه طالما أنكم واقفون على أقدامكم... لا تخشوا إذن، السقوط من الحالة [حالة الازدهار] التي أنتم فيها. يجب عليكم البقاء بقدر فساد الإنسان، كطريق أكثر قِصرا وأكثر بساطة لمزاولة عدالة الإله[29]...» (فرنسا الكاثوليكية للغاية، ط. مذكورة، ص. 62-63).

بالتأكيد، يعتقد الوُعّاظ أنهم يتصرّفون بضمير:

«آمل، محبة فيهم [المضطهدون الكاثوليك]، أن لا يتصرّفوا أبدا ضد ضميرهم، ولا بدوافع إنسانية، بل بحماسة من أجل الكنيسة التي يعتقدون أنها حقيقية وحدها؛ لكن إن كان هذا بحماسة، آه! أقرّر من اليوم أن أدعو الإله صباح مساء لعدم إعطائي هذه الحماسة؛ سأفضل اللامبالاة على حماسة أو تديّن يجعلني أقوم بالكثير من الأشياء المخالفة لأفكار الإنصاف» (نفس المصدر، ص. 77).

ويُقول بايل بشدّة أكبر:

«تفزعون من إنسان مستقيم لحماسة لديه، من خلال قيامكم باستعمال سيّئ لحماستكم، إذا كان صحيحا أن لديكم حماسة للدين» (نفس المصدر، ص. 65).

ويوضح:

26 بصيغة أخرى؛ وكأنّ بايل يريد أن يقول ما مفاده: الله يتصرف بالوسائل الأكثر بساطة وشمولية (انسجاما مع الكمال اللانهائي لطبيعته). و[حسب المذهب المسيحي]، الناس منحرفون للغاية (بفعل الخطيئة الأصلية) المنسجمة مع هذه العدالة الإلهية، حيث يعاقب البشر من طرف الكاثوليكية تنفيذا للقيم الإلهية (هامش المترجم).

27 يريد بايل أن يقول: [...] والحال أنّ الدين الكاثوليكي المضطهد مفيد له (للإله) في معاقبة الأفراد وجعلهم يعانون بألف طريقة (بايل يسخر هنا حسب أنطوني ماكينا (Antony mckenna، وليست هناك من وسيلة أكثر فاعلية لمعاقبة الأفراد (مثلما يجب أن يكونوا حسب المذهب المسيحي)، من الإبقاء على الكنيسة الرومانية. إذن، هذه الوسيلة جديرة بالإله (هذه سخرية فقط من طرف بايل حسب الباحث) (هامش المترجم).

28 يريد أن يقول: أنتم (الكاثوليك) ضروريون كوسائل للعدالة الإلهية، لأنكم تضطهدون الأفراد (بايل دائما يسخر حسب الباحث) (هامش المترجم).

29 يريد بايل -من خلال هذا النص- أن يُدين عنفَ اضطهادِ الكاثوليك ضد البروتستانت، يصيغ هذا بطريقة ساخرة بالقول إنّ الكاثوليكية هي أداة للعدالة الإلهية (لإله لا يريد إلا معاقبة الأفراد) (هامش المترجم).

«أودّ أن تعرفوا موقف من ليس لهم دين آخر غير دين الإنصاف الطبيعي. هم يرون تصرفكم كحجة قاطعة، وحينما يتتبّعون الأثر، يرَوا أعمال التخريب وسفك الدماء التي ارتكبها دينكم الكاثوليكي لمدة ست أو سبع مائة سنة من قِبل الجميع، لا يمكنهم الامتناع عن القول إنّ الإله طيّب بالضرورة حتى يكون مُوجِد شيء ضار مثلما أوجدته الأديان الوضعية، الذي لم يوحِ للإنسان إلا بالحقّ الطبيعي، لكنّ أرواحا معادية لاستقرارنا أتت ليلا لزرع النزاع في حقل الدين الطبيعي بإقامة بعض الطوائف الخاصة، التي كانت تدرك جيدا أنها ستكون بذرة أبدية للحروب، للمجازر والأعمال الجائرة». (نفس المصدر، ص. 36).

وقد سبق له في **الأفكار المختلفة**، أن تحدّث عن حرية الاعتقاد في عالم بدون حماسة أو خرافة:

«لقد فكّرنا في كل هذا من خلال هذه الحرية الثمينة جدا للناس الصالحين، التي يمنحها المرء لنفسه حينما لا يضايقه حضور الشعب ولا الدكاترة[30] المتعصبين، نوعان من الناس من يجب احترامهم بعناية؛ الأوائل، مخافة زعزعة عقيدتهم، والآخرون، مخافة الصيرورة موضوعا لاضطهاداتهم المشتعلة». (أفكار مختلفة حول المذنبات، §200، ط. بْرات-ريتات، ص. 179).

إن مساحة الحرية كهاته التي أحدثها بايل، تَظهر لي في **القاموس**، الذي يتطابق تماما مع تصوره المثالي للتعايش الاجتماعي لجمهورية الآداب. حاولت في مكان آخر تبيين أنّ هجماته المتواصلة ضد جوريو تقوم على رفض روح «الحماسة» لدى اللاهوتي[31]. علاوة على ذلك، يرسم بايل صورة المؤمن المتحمس في مقال «أغريبا Agrippa (هينري كورنيل Henri Corneille)»، ملاحظة (Q)[32]. هكذا، خلافا للكنيسة كما مثّلها جوريو، «بلد» الحماسة الدينية المتّسم بانقسام عنيف (متى، 10، 35-34، ولوقا، 12، 53-51)[33]، يمثّل بايل **القاموس** بالمَعلَم الرمزي لِـ «الحرب السلمية» للعقول؛ بمعنى للتسامح، للنقاش النقدي، المستمر والهادئ، الذي يميّز جمهورية الآداب، هذه «الدولة الحرة للغاية» التي لا نعترف فيها «إلا بإمبراطورية الحقيقة والعقل» (مقال «كَتيوس Catius» ملاحظة (D).

أود أن أختم مرّة أخرى بالتسلسل الزمني، الذي يوحي بتماسك مواقف بايل المتعاقبة من التسامح كما من العلاقة بين العقل والعقيدة. لقد جرى تدعيم الاتفاق بين العقل والعقيدة في مجال الأخلاق كمبدأ لا جدال فيه؛ يجب أن يوفِّق مذهب التسامح بين المبدأ الأساسي للأخلاق -الإنصاف، الإنسانية، «هذا الإيثار العام

30 المقصود بالدكاترة علماءُ الدين.

31 انظر المقال أعلاه «فكرة عن جمهورية الآداب: بايل وعمل المؤرخ».

32 انظر النص المذكور أعلاه.

33 متى، 10، 34-35: «لا تعتقدوا أنني أتيت لإحلال السلام على الأرض؛ لم آت لجلب السلام، بل السيف؛ لأنني أتيت لتفريق الرجل عن والده، البنت عن أمها، وبين زوجة الابن وحماتها.» لوقا 12، 51-53: «تعتقدون أنني أتيت لإحلال السلام على الأرض؟ لا، أؤكد لكم، لكن، بالعكس، الانقسام. لأنه بعد الآن، إن وُجد خمسة أشخاص في بيت، سينقسمون بعضهم ضد بعض، ثلاثة ضد اثنان. سيكون الأب في شقاق مع الابن، والابن مع الأب، الأم مع ابنتها، والبنت مع أمها، الحماة مع زوجة ابنها، وزوجة الابن مع حماتها.».

الذي ندين به لكل الناس، من خلال الواجبات الإنسانية التي لا غنى عنها»- والحقوق الفردية للضمير. في سنة 1693، بعد طُرده بقسوة من المدرسة الكبيرة[34]، ومواجهة خيبة الأمل المتمثلة في «الثورة المجيدة»[35]، ومهاجمته من طرف جوريو المنتصر، كان بايل في حالة عزلة وضعف، لذلك غيّر جذريا موقفه وتصدى للاّهوت العقلاني بصفة خاصة في مقال «بيرون Pyrrhon»، ملاحظة (B)، وفي **الإيضاحات**. في الواقع، شرَع بايل في تأليف **القاموس**، الذي بيّن فيه أن العقل، «النور الطبيعي»، غير متوافق مع العقيدة على جميع الأصعدة: في النهاية، يؤدي العقل إلى الإلحاد (انظر أيضا مقال «أكوسطا Acosta»). وفي الوقت نفسه وللمرة الأولى، احتمي بـ «دِرع شارون bouclier de Charron»، فصرّح بالتخلي عن العقل والخضوع بشكل أعمى للعقيدة. أمام هذه التصريحات لا يعود جوريو مسلَّحا وقادرا على إثبات أن بايل هو مؤلف **البلاغ**[36]، تائه في ظنونه حول امتداد المؤامرة الوهمية[37] ومكافح لإبراز عدم اتساق -والإيمان السيّئ- لبايل الجديد في **القاموس** و**الإيضاحات**. وقد اغتنم بايل هذا الهدوء وألف أعماله الفلسفية الأكثر قوة وجرأة: **مواصلة للأفكار المختلفة** و**الإجابة عن أسئلة قروي**، التي يتصدى فيها بقوة لآثار التعصب الديني الضارة ويدعو من جديد إلى التسامح بواسطة حجج عقلانية في خدمة الضمير المستنير.

34 بعد لجوئه إلى روتردام الهولندية، التحق بوظيفة أستاذ للتاريخ والفلسفة في «المدرسة الكبيرة école illustre»، أكاديمية البلدية، وكان فيها جوريو زميلا له (هامش المترجم).

35 خيّبت الثورة المجيدة la Glorieuse Révolution (1688) التي قامت في إنجلترا آماله، لأنها ذهبت في اتجاه معاكس لما يصبو إليه؛ ذلك أنه بالرغم من أنه كان منتَمٍ إلى الطائفة لبروتستانتية التي شكلت أغلبية آنذاك (في انجلترا)، إلا أنه كان يرفض أي تمرّد ضد الملك -وضد الأقليات أيًا كان انتماؤها- حتى وإن كان كاثوليكيا. والحال أن هذا ما تَمّ بالفعل في هذه الثورة. وطبعا ما كان لموقف بايل إلا أن يهيّج عليه غضب أبناء طائفته (البروتستانتية). لكن ما نستخلصه نحن من هذا، هو أن بايل لم يكن يحمل فكرا سياسيا ثوريا، بقدر ما كان مهتما -بدرجة أولى وبشكل سلمي- بتأسيس مذهب للتسامح يكون منصفا للجميع (هامش المترجم).

36 المقصود كتاب بايل **بلاغ هام للأجنين 1690** الذي كان ضد البروتستانت هذه المرّة وليس ضد الكاثوليك كما فعل في المؤلفات الأخرى (**نقد عام لتاريخ الكالفينية للأب ميمبورغ 1682، ما تعنيه فرنسا الكاثوليكية للغاية في عهد لويس الكبير 1686، الرسائل النقدية الجديدة 1685**) (هامش المترجم).

37 كان بايل موضوع اتهام من طرف جوريو الذي يدّعي أن بايل تآمر ضد الدولة بإعادة نسخ مشروع سياسي (بطلب من مينيتولي Minutoli) وتوزيعه على مختلف الأشخاص المؤثرين. يردّ بايل على جوريو بأن هذه المؤامرة المزعومة وهمية (إنها "مؤامرة وهمية") (هامش المترجم).

مفاهيم مترجمة

Scepticisme: ريبية

Prémisses: مقدمات منطقية

Charité: إيثار

Évidence: وضوح

Ecriture: كتاب مقدس

Axiomes logiques: بديهيات منطقية

Précepte évangélique: وصية إنجيلية

Propositions: قضايا/مُحَصِّلات

Sens commun: حس سليم

Négligence: إهمال

Malice: خُبث

Miracles: معجزات

Approbation: إقرار

Vérités spéculatives: حقائق تأمّلية

Vérités particulières: حقائق خاصة

Mystères: أسرار خفيّة

Matières de controverse: مسائل جدلية

Croyances: معتقدات

Convictions: قناعات

Adversaires: معارضين

Passions: أهواء

Infaillible: معصومة

Putatives: ظنّية

Consulter: استطلَع

Zèle: حماسة

Inexcusable: غير مبرَّر

Foi: عقيدة

Crainte: ارتياع

Inspiration: إلهام

Révolte: تمرُّد

Exigence: مَطلَب

Coupable: آثم

Adiaphora: الأشياء غير المبالٍ بها

Fatum: قَدَر

Volontariste: إرادوية

Régicides: قَتَلَةُ الملك

Monarchomaque: محتجّون على السلطة المطلقة للملك

Se convertir: اعتنق دينا آخر

Persécution: اضطهاد

Conversion: هداية

Hétérodoxes: هراطقة

Ignorance invincible: جهل قاهر

Pyrrhonisme: بيرونية

Argument tautologique: حجة حَشْوية

Mœurs corrompues: أخلاق مُنحَلَّة

Paresse: كَسَل

Pétition de principe: مصادرة على المطلوب

Corruption: فساد

Peine: حزن/شقاء

Profil: مظهَر

Convertisseurs: وُعّاظ

Monument emblématique: مَعلَم رمزي

Bouclier: دِرع

Cabale chimérique: مؤامرة وهمية

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569
الهاتف : 54 99 77 537 212+
الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com
www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2020

All rights reserved © 2020